المقدمة: الإسلام والبيئة

الحمد لله الذى علم الإنسان ما لم يكن يعلم والصلاة والسلام على رسول الله

البيئة هى الحيز الذى يعيش فيه الكائن الحى، فى هذا الحيز قوى وطاقة كقوة الرياح وقوة الجاذبية وطاقة الشمس. وفيه مواد كالأرض وما فيها والمياه وغازات الهواء. وفيه أنماط الحياة النباتية والحيوانية بعضها ضخم بين، وبعضها دقيق لا تراه العين. يجد الكائن الحى فى الحيز وما يزخر فيه زاده ومأواه الحيوان العاشب يأكل ما يتيسر من نمو النبات، والحيوان اللاحم يفترس ما تيسر من حيوان. كل ذلك فى إطار توازن بيئى، وكل شىء بقدر: «إنّا كل شىء خلقناه بقدر» صدق الله العظيم

لكن الله ميز الانسان بقدرات العقل والعمل، وهى قدرات أذنت له أن يغير عناصر البيئة إلى ما يبتغيه، فهو لا يأكل النبات كما يفعل الحيوان العاشب انما يعالجه بالطهى والخلط وكذلك يفعل باللحم، وأن يغير الغطاء النباتى الفطرى إلى ما يبتغيه من حقول يزرعها أو مراع لماشيته. وأن يضبط ماء النهر الجارى ليخزنه إلى موسم حاجة أو ليروى به حقوله، وان يحفر الأرض ويحصل على خاماتها من البترول وغيره ويظل يغير فيها لتصبح صالحة للوقود أو معادن من حديد وفضة وغيرها، وأن يبنى فوق هذا الحيز مستقرات سكنه التى نرى فى القرى والمدن، ومصانع تحول الخامات إلى سلع تفى حاجاته إلى غير ذلك من نواتج عمل الإنسان وجده.

– أى أن بيئة الانسان هى الحيز الزاخر بالعناصر التى يحولها بعمله المنظم إلى ثروات يقول أحد علماء الاقتصاد إن «الثورة لا تكون إلا أنها تتكون» أى تتكون بفعل الانسان. البيئة هى خزانة الموارد الطبيعية، هذا هو الوجه الأول للبيئة. البيئة هى الحيز الذى يمارس فيه الانسان حياته ونشاطه يصلح حاله ان صلحت وتفسد صحته ان فسدت، هذا هو الوجه الثانى للبيئة اذ رشد الانسان فهم أن البيئة التى يعيش فيها جزء من نظام بيئى واسع هو «المحيط الحيوى» والمحيط الحيوى هو الحيز من كوكب الأرض وغلافه الجوى الذى تكون فيه الحياة هذا المحيط الحيوى تحكمه نواميس غاية فى الدقة والاتزان وهذه النواميس جزء من القوانين السرمدية التى تضبط حركة الكون جميعا وتجاوز هذه النواميس فى دقتها وتوازنها هوة «الفساد» الذى حذرنا منه القرآن فى عديد من آياته الكريمة.

«كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين»

البقرة / ٦٠

«وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين»

هود / ٨٥

«وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد»

البقرة / ٢٠٥

«ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون»

الروم / ٤١

الفساد الذى تشير إليه الآيات الكريمة يجمع الوجهين اللذين تشير إليهما علوم البيئة الحديثة، وهما:

- فساد البيئة التى يعيش فيها الإنسان – التلوث
- فساد الموارد البيئية التى يعتمد عليها الإنسان.

يؤذن لى أن أشير إلى واحدة من هذه الآيات الكريمة وتسلسل عناصر رسالتها

١ – ظهر الفساد فى البر والبحر، أى ظهر التدهور البيئى فى المحيط الحيوى بقطاعيه اليابس والمائى.

٢ – بما كسبت أيدى الناس، أى نتيجة عمل الإنسان غير الرشيد الذى لم يراع قواعد التوازن البيئى.

٣ – ليذيقهم بعض الذى عملوا؛ أى يصيبهم بعض الضرر : فساد البيئة بالتلوث الذى يضر بصحتهم، وفساد الموارد الطبيعية الذى ينقص من معاشهم.

٤ – لعلهم يرجعون اى يعودون الى رشدهم فيصلحوا الذى أفسدوا ويقلعوا عن السلوك غير الرشيد الذى أفسدوا به بيئتهم.

الامانة التى حملها الانسان والخلافة التى كرم الله الانسان بها والمسئولية التى هى جزء فطرة الانسان، هى فى جملتها صون التوازن البيئى على كوكب الأرض ويؤذن لى أن أشير إلى طرف من قصة سيدنا نوح عليه السلام.

«حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك»

هود / ٤٠

١ – كان فلك نوح هو الوسيلة الوحيدة للنجاة أى للبقاء، والبقاء هو حفظ النوع.

٢ – أمر الله نوحا ان يحمل معه الكائنات الحية الأخرى التى خلقها الله وجعلها من عناصر المحيط الحيوى وأمره ان يحمل من كل نوع زوجين اثنين وهى الوحدة القادرة على حفظ النوع وصونه وتحقيق بقائه (حفظ التنوع البيولوجى).

القرآن الكريم أوجز فى اشارته إلى زوجين اثنين، والتوراة فصلت وذكرت ان امر الله تضمن سبعة ازواج من كائنات بعينها، وثلاثة أزواج من كائنات اخرى، وهكذا ولكن المقصود فى الحالين هو العدد من الأفراد القادر على حفظ النوع

٣ – أمر الله نوحا – من بعد – أن يحمل معه أهله أى عناصر الجنس البشرى الذى ستحفظ نوعه وتحقق بقاءه، نجاة نوح وحده لا تعنى بقاء النوع.

يعنى هذا ان ناموس المحيط الذى وضعه خالقه هو ان للكائنات جميعا – ومنها الانسان– حق البقاء لأن الجميع شركاء فى المحيط الحيوى الذى شاءت ارادة الله ان يكون مهادا للحياة. لأن الله لم يخلق الكائنات عبثا بلا غاية. والواقع ان لكل كائن من الميكروب الدقيق الى الحيوان الكبير دوراً فى حفظ توازن الحياة. يعنى هذا ان نوحا – قائد الفلك – هو المسئول عن سلامة الكائنات جميعا، لا فرق بين نوع ونوع وأنه المسئول عن اتاحة فرص البقاء هذه هى الأمانة التى حملها والخلافة التى كرمه الله بها.

فلك نوح هو رمز له شبه فى الحاضر إذ عندما صعد نفر من الناس إلى الفضاء بسلطان ما حملهم من صواريخ نظروا من عل الى كوكب الأرض فرأوه سفينة سابحة فى الفضاء. وعلموا انها السفينة الواحدة التى تحمل الحياة بكل أنواعها وأن الكواكب الأخرى، التى لا يحصى عددها إلا الله تبدو خاوية.

الكرة الأرضية هى الفلك، ونوحها هو الانسان المسئول عن حسن إدارتها بأن:

١ – يحفظ توازنها ونواميس النظم البيئية

٢ – يحقق للأنواع جميعا البقاء

٣ – يحمى البيئة مما يلوثها ويفسد صحتها

٤ – يأخذ من مواردها ما يكفى حاجته المشروعة ولا يستنزف مواردها بالإسراف الذى نهى عنه الإسلام

هذه هى مسئولية الانسان (الجنس البشرى) وهى مسئولية حمل الأمانة والاستخلاف الذى هو تكريم الله للانسان

من القضايا البيئية التى شغل العالم بها صون التنوع الأحيائى. قضية وضعت لها اتفاقية دولية عام ١٩٩٢، واستكملت دول العالم – ومنها مصر – اجراءات التوقيع والتصديق عام ١٩٩٤ وأصبحت معاهدة دولية فى حيز التنفيذ هذه الاتفاقية تدعو إلى صون الأنواع النباتية والحيوانية جميعا، فماذا قال الإسلام منذ ١٤ قرناً؟

١ – أن لهذه الأنواع حق البقاء والحياه، وهى شركاء الانسان فى المحيط الحيوى، ومن مسئوليات الانسان صون حياتها على نحو ما اشارت إليه قصة سيدنا نوح عليه السلام وفلكه.

٢ – أن هذه الأنواع وصفاء للإنسان فى عبادة الله وتسبيحه.

«وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم»

الانعام / ٣٨

«ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون»

النور / ٤١

«ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس»

الحج / ١٨

٣ – فى أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام الكثير من الحث على الرفق بالحيوان، وحديثه الشريف عن المرأة التى عذبت فى هرة، وعن الشخص الذى سقى كلبا يلهث من العطش، وقوله الجامع «فى كل كبد رطبة أجر» ولعن عليه السلام «من اتخذ شيئا فيه روح غرضا» أى جعل منه هدفا يلعب ويتلهى بالتصويب عليه.

كذلك نهى النبى الكريم عن استيقاد النار فى موضع قرية النمل. وقد روى البخارى ما معناه أن الرسول عليه السلام ذكر أن نملة قرصت نبيا من الانبياء فأمر بقرية النمل أن تحرق، فأوحى الله إليه: أفى أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح، ونهى عن قطع شجرة فى الغلاة يستظل بها الإنسان والحيوان.

نعم إن الاسلام أحَّل الصيد ولكن بقصد الطعام والإفادة من الحيوان، ودون تجاوز لحدود الحاجة المشروعة، ودون ان يكون القصد هو اللهو والتقتيل. هذه مسألة مهمة لأن علوم البيئة وصون الحياة البرية تدعو إلى الإدارة السليمة لمجموعات الحيوان البرى، ويكون الصيد والقنص المنضبط من وسائل صون الحيوان وتحقيق التوازن بين أعداده وأعداد شركائه فى الحيز وما يتاح من كلأ ومرعى الصيد بقدر مباح والإسراف فى الصيد منكر.

من الوسائل المعروفة لصون الحياة البرية انشاء المحميات الطبيعية وقد صدر فى مصر القانون رقم ١٠٢ لسنة ١٩٨٣ يخول للسيد رئيس مجلس الوزراء تخصيص مناطق لحماية البيئة بما فيها من ظواهر طبيعية ومن نبات وحيوان. وتوجد فى مصر حاليا ١٨ محمية طبيعية تمثل الانماط البيئية فى ربوع مصر جميعا. وكذلك تفعل دول كثيرة وخاصة بعد إقرار الاتفاقية الدولية لصون التنوع الأحيائى.

وقد سبق التراث العربى فى هذا المضمار، وأقره الاسلام وزكاه هذا هو نظام الحمى وأكرم أحمية الحرمان الحرم حول مكة أمان للناس والحيوان والنبات. وقد روى البخارى أن رسول الله عليه السلام قال يوم فتح مكة «فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده» وحرم الرسول عليه السلام المدينة المنورة قال «ان ابراهيم حرم مكة وانى حرمت المدينة ما بين لابتيها لا يقطع عضاهها ولا يصاد صيدها»

أما الحمى فهى مناطق ينظم استغلال مواردها كأن يمنع فيها قطع الشجر أو أن يخصص مرعاها لدواب الجيش فى زمن السلم أو أن يخصص لدواب الحج أو أن يخصص لتربية النحل. الغرض من الحمى هو صون النظام البيئى كله وحمايته من الاستغلال غير المنظم الذى يؤدى الى التدهور ليكون كل شىء بقدر

من المقاصد التى شاع الاهتمام بها وخاصة فيما بعد انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية (قمة الأرض- ١٩٩٢) مقصد «التنمية المتواصلة/ المستدامة» وهى تنمية الموارد الطبيعية فى المحيط الحيوى بحيث تفى بالحاجات المشروعة للناس فى حاضرهم دون الإخلال بحق الأجيال التالية من الابناء والاحفاد فى ان يجدوا ما يفى حاجاتهم يقوم هذه المقصد على أسس، منها:

- ان تكون تنمية الموارد فى إطار مدى زمنى ممتد.
- ان لا يؤدى استغلال الموارد الى استنزافها ونضوب معينها.
- ان لا يؤدى الاستغلال الى إفساد البيئة.

التنمية المتواصلة/ المستدامة ذات مضمون أخلاقى وهو مسئولية الجيل الحاضر تجاه الأجيال القادمة، وكل مضمون أخلاقى ينبغى أن يتأسس على قواعد الدين، وقد وضع الاسلام هذه القواعد مجملة فى ثلاثة أمور:

١ - النهى عن الإسراف:

«يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين»

الحج / ١٨

«ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون»

الشعراء / ١٥١ – ١٥٢

نهى الرسول عليه السلام عن الإسراف فى استعمال الماء حتى لو كان ماء الوضوء، وحتى لو كان المرء «على نهر جار».

٢ – الحث على تعمير الأرض وتنمية الموارد وإحياء الأرض الموات:

«هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها»

هود / ٦١

«ان الدنيا خضرة والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون»

حديث شريف

«ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»

حديث شريف

٣ – النهى عن إفساد البيئة وإتلافها:

ولعلى أذكر فى ختام حديثى ان مؤلفا بريطانيا كتب كتابا عن موارد المياه وجعل فيه مقدمته فصلا عن التنمية المتواصلة / المستدامة ذكر فيه أن والده حدثه انه زار مصر والتقى بالإمام محمد عبده وسمع منه أن من توجيهات الاسلام أن

«اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا

وأعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا»

وقال فى الجملة الثانية جوهر فكرة التنمية المتواصلة، وقد سبق بها المسلمون العالم بأكثر من عشرة قرون